تقرير - كوبي بن سمحون

متى وكيف صار الجيش الإسرائيلي متدينا إلى هذه الدرجة؟

يكشف التقرير التالي الذي أعده الصحافي الإسرائيلي كوبي بن سمحون، ونشر في جريدة هآرتس في مطلع شهر تشرين الثاني ٢٠١٤ ، التحولات العميقة التي يشهدها الجيش الإسرائيلي، من حيث تغلغل التديين إلى صفوفه، وأثر ذلك على قيمه ومعتقداته، خاصة فيما يتعلق بالحرب والقتال. يضم التقرير مجموعة من المقابلات مع جنود ومختصين وخبراء وحاخامات، ويضيئ جانبا يسهم في فهم التحولات التي تعصف بتركيبة المجتمع الإسرائيلي بشكل عام، وانتقاله المستمر نحو التطرف اليميني والأصولية الدينية.

زيارات متتالية لحائط المبكى، إقصاء جنديات، ومرافقون دائمون من رجال الدين للوحدات القتالية. لقد أظهرت عملية «الجرف الصامد» الأخيرة تعزز الأسس الدينية في الجيش. وفيما تحذر مستشارة قائد الجيش، ورئيس شعبة القوى البشرية ومراقب الدولة، فإن الحاخامية العسكرية تتزايد قوة وتأثيرا ، فهل نحن في الطريق إلى جيش أصولي؟

«كان ذلك رائعاً. في اللحظة التي دخلنا فيها الموقع، كان في انتظارنا جنود الحاخامية الكبرى»، يقول الجندي (أ) الذي ينحدر من موشاف زراعي ويسكن اليوم في تل أبيب، "حدث ذلك في سنة ٢٠١٠، في القاعدة العسكرية شمال البلاد، حين ذهب طاقم الاحتياط الذي أخدم فيه للتمركز في هضبة الجولان. في الفترة التي دخلنا فيها القاعدة، كان جنود الحاخامية قد أنهوا مدّ خيط الاختلاط، الذي هدف – كما علمت لاحقا– إلى مساعدة الجنود المتدينين على عدم انتهاك حرمة يوم السبت. فالخيط يسمح لهم "بهزّ الأشياء" في الخارج أيام السبت. كان ذلك غريباً. تقريباً سريالياً، إذ لم يصل للقاعدة تمويل الذخيرة والغذاء لكن خيط الاختلاط كان قد مُدّ!».

جنود يقيمون الصلاة على حدود غزة، أثناء عملية "عمود السحاب" في تشرين الثاني، ٢٠١١ . وقد تحول الحاخامات العسكريون، تحولوا لشخصيات مهيمنة جداً ليس أقل من القادة العسكريين.

يبلغ (أ) من العمر ٣٧ عاما، ما زال يخدم في الاحتياط ضمن إحدى الوحدات المختارة لسلاح المشاة. يقول: «أعتقد أن هذه كانت المرة الأولى التي فهمت من خلالها أن جيشنا تغير بشكل كبير. حينها فهمت أن جيشي تغيرت فيه الحياة بشكل يومي».

جنود يقيمون الصلاة على حدود غزة، أثناء عملية «عمود السحاب» في تشرين الثاني، ٢٠١١ . وقد تحول الحاخامات العسكريون، تحولوا لشخصيات مهيمنة جداً ليس أقل من القادة العسكريين.

لكن خيط الاختلاط –كما سيتضح– كان حينها مجرد البداية، إذ حدث بعد ذلك، ظهيرة يوم السبت، استنفار في القاعدة، خشية من اقتحام، يضيف (أ): «عندما يحصل أمر كهذا، لا يكون مكان لأسئلة تتعلق بالشكل الذي يجب أن نعمل به، لكن وسط حالة البلبلة والإرباك التي كنا فيها اصطدمنا بجندي احتياط متدين يرفض ركوب الجيب العسكري، لأنه لا يريد أن ينتهك حرمة السبت. بسرعة، وفي خضم النقاش والصراخ جاء شخص آخر بدلاً منه. لقد كان ذلك أمرا شاذاً. واتضح لي في هذه اللحظة أننا لم نكن نتكلم نفس اللغة. لم يكن هذا الحدث ممكن الحدوث في خدمتي النظامية، لقد بدأت أعي أننا جئنا».

لم يكن ذلك الحدث الأخير الذي يشكل تحديا لنسيج العلاقات الهشّة ما بين الجنود المتدينين والعلمانيين في ذات القاعدة العسكرية في الشمال. يضيف (أ): «كان هنالك على الأقل حدثان إضافيان متعلقان بأمور الدين» . الحدث الأول مرتبط بمُدربات سلاح المشاة اللواتي وصلن من أجل إعطاء دورة استكمال. أذكر حينها أن أحد الجنود المتدينين لم يكن راضيا عن وصولهن، وبدأ بالابتعاد عنهن، وحاول عدم الإصغاء لهن. بعد ذلك، حين بدأنا بتجهيز أنفسنا للنوم، قام وقال: 'لن ينمن في القاعدة'، وذلك على الرغم من أنه كان يوجد عدد كاف من الغرف للجميع– وكان عنيدا للغاية، حيث أضاف 'لن يحدث ذلك، هذا ممنوع'، وبدأت تدب حالة فوضى، وفي النهاية تقرر أن يتم نقل المُدربات للنوم في قاعدة أخرى في الشمال. وبعد انتهائنا من التدريب، طلب الجندي نفسه بأن لا تنضم المُدربات لوجبة العشاء معنا، لكننا في هذه اللحظة لم نكن مستعدين للتنازل، لقد كانت هذه وقاحة. كان هناك أشخاص طلبوا أن نتفهمه بسبب قدومه من مدرسة دينية عالية المستوى. لكنني لم استطع، نحن لسنا في "بني براك" نحن في قاعدة عسكرية. حتى في مطاعم المتدينين يجلس الرجال والنساء معاً. وفي نهاية الأمر أخذ طبقه وذهب للأكل في الغرفة وحده».

الجنود يصلّون بعد عودتهم من القتال في غزة أثناء عملية "الجرف الصامد" في آب ٢٠١٤. الضباط هم شخصيات تربوية ولأيديولوجيتهم تأثير كبير على الجنود.

على الرغم من الحرارة التي وصف بها (أ) الأمور، وعلى الرغم من أنه ابن لأم جاءت من الكيبوتس وأب جاء من المدينة، إلا أنه يعتبر نفسه شخصا ذا خلفية تقليدية، لكنه مشحون بفكر علماني مبلور. «ربما لهذا السبب أنا لا اتهم الجنود المتدينين بشيء. هذه معتقداتهم . مشكلتي هي أن الموضوع الديني تحول إلى موضوع نتعامل به يومياً. وهذا يتجسد بمواضيع هامشية مثل موضوع الاختلاط، يتواصل بقضايا مركبة أكثر مثل المساس بمجندات أو المجادلة وقت الاستنفار . في نهاية الأمر كل الأمور تتصل بالقضية الأكبر».

تُصور الأحداث التي مرّ بها (أ) بأنها مجرد أحداث فردية، لكن الحقيقة أن أحداثا كهذه صارت تتحول لاعتيادية أكثر وأكثر في الجيش الإسرائيلي. إذ تشير عشرات الشهادات لجنود نظاميين وجنود احتياط، وقادة كبار في جهاز الأمن، وباحثين أكاديميين، أن مؤسسة الجيش تعيش صراعا يوميا مع القوة المتصاعدة للمفاهيم والقيم الدينية التي تُفرض بطرق مختلفة، وفي أطار الإطاعة والامتثال على الجنود.

شكلت عملية «الجرف الصامد» فرصة إضافية لكشف الطريقة التي غير بها الجيش وجهه في العقدين الأخيرين، وتحول لمنظمة تتصاعد وتتزايد فيها مبادئ وأسس دينية، مثل صلوات الجماعة قبل الخروج للمعركة، إقصاء نساء، تعاظم قوة الحاخامية الكبرى، بلورة واستيعاب أوامر تخص أمور الدين بشكل مباشر، وأعمال مشتركة للحاخامات العسكريين، وسيطرة عالية من أجل غرس أفكار دينية تتعلق بالروح القتالية والحياة اليومية في الجيش الإسرائيلي.

الجنود يقيمون الصلاة بعد عودتهم من القتال في غزة أثناء عملية «الجرف الصامد» في آب ٢٠١٤. الضباط هم شخصيات تربوية ولأيديولوجيتهم تأثير كبير على الجنود.

لنحارب الفلستيُون (Philistine) [1]

بالنسبة لـ (ج)، جندي نظامي يخدم اليوم بوظيفة التوجيه في إحدى القواعد العسكرية في وسط البلاد، فإن جوهر التجربة الدينية في الجيش مختصر في حائط المبكى. يقول (ج): «حتى الآن وبعد سنة وثلاثة أشهر من الخدمة، كنت ثلاث مرات عند حائط المبكى. أرسلونا في المرة الأولى للحائط في إطار دورة تفعيل وتدريب

الضباط. كانت الزيارة جزءا من جولة واسعة أكبر في البلدة القديمة التي تضم أيضا محاضرات لاحتياطيين متدينين، حدثونا بمصطلحات مثل النجاح. أنا أعتقد أن كل جندي يمرّ بدورة الضباط يجب عليه المرور بجولة في القدس. هذا جزء من التدريب».

«المرة الثانية التي وصلت فيها لحائط المبكى كانت في 'يوم أورشليم'[٢] ليس منذ زمن بعيد، حيث أرسل جميع القسم، الذين يصل عدد أفراده لحوالي ٥٠ جنديا . ترافقت الجولة في هذه المرة أيضا مع محاضرات لرجال احتياط متدينين، ولكن، تسلمنا هذه المرة أيضا مهمة، فمن أجل التعرف على البلدة القديمة، استلمنا خارطة وطلب منا المرور بعدة أماكن، ووضع إشارة تدل على زيارتنا لها والقراءة عليها. وصلنا أيضا لكنيس قديم ولحائط المبكى . كانت المرة الأخيرة التي زرت فيها حائط المبكى قبل عدة أيام في إطار رأس السنة. مرة أخرى قصة مشابهة إلى حدّ ما، نفس المفهوم. القليل من المواقع، القليل من المحاضرات لاحتياطيين متدينين».

عموماً، فإن رأس السنة هو موعد للأحداث ذات الصلة الدينية في جيش الدفاع الإسرائيلي. على سبيل المثال، اتصل الجيش قبل العيد بأيام معدودة من وحدة الاحتياط في سلاح المظليين مع عشرات أرامل الجيش، وأبلغهن أن ضابط الوحدة يطلب منحهن هدايا أثناء العيد. وبالفعل في مساء رأس السنة وصل جنود الوحدة إلى مداخل بيوت الأرامل من أجل منحهن الهدايا الموعودة: كتاب يضم بين دفتيه: تقديس السبت وكل أعياد إسرائيل، أغان وتراتيل لثلاث عشوات السبت، مباركة الغذاء والسبع بركات. وقع الكتاب بالشعر وأغنية للأعياد والمناسبات السعيدة، وفيه يتضمن هذا المقطع:- يا أقوى الأقوياء، اضرب أعداءنا، وقوِّ جيشنا، واحفظ جنودنا».

تمثّل تجسيد آخر لتغلغل طقوس دينية إلى داخل الجيش بإقامة «الميكفة»[٣] في قاعدة سلاح الجو عوفدا في الجنوب على يد منظمة "طهرات هبيت- طهارة البيت"، التي تأسست سنة ٢٠٠٥، حيث وضعت نصب أعينها إحداث ثورة في مجال الطهارة في أرض إسرائيل، ومن أجل جلب بشرى التطهير لبنات إسرائيل بزهو وفخامة»، وذلك كما كتب على موقعها بالإنترنت، كما كتب أيضا على الموقع «من الجنوب حتى الشمال، من قاعدة سلاح الجو عوفدا قرب إيلات، وحتى مستوطنة «بني إيتان» في هضبة الجولان، تنتشر عشرات «الميكفات» التي توفرها المنظمة وتنشر بشرى التطهير في إسرائيل».

في هذا السياق، نشرت أثناء عملية "الجرف الصامد" ورقة قائد لواء جفعاتي عقيد احتياط عوفر فينتر، والتي كشفت عن مدماك إضافي لهذه الظاهرة متعددة الأبعاد. "أنا أوجه أنظاري إلى السماء وأبتهل لشعب إسرائيل، ربنا الواحد»، كتب فينتر لجنوده. "إله إسرائيل وفقنا في طريقنا حيث نمضي متجهزين للقتال من أجل شعبك إسرائيل ضد أعدائك الذين يهينون اسمك».

يعبر هذا النص عن أجندة واضحة، كما يقول الباحث البروفسور يجيل ليفي، المتخصص في مثلث العلاقات العسكرية- الاجتماعية- السياسية. ويضيف بأن «فينتر تصرف بحسب ما هو متوقع من ضابط متدين خريج الكليات التمهيدية ما قبل العسكرية. إقامة هذه الكليات، لم تكن تهدف فقط إلى تشجيع ذهاب الشباب المتدينين للوحدات القتالية، والتقوي من الناحية الدينية، بل لتشكل وسائل تأثير على الجيش. لذلك فان فينتر لم يحتفظ بقيمه لنفسه، بل عمل كقائد له وظيفة تعليمية – دينية، وأنه دخل الجيش من أجل التأثير».

يقترح يجيل ليفي فحص قضية فينتر على ضوء قضية ضابط كبير آخر، هو اليعازر طوليدانو، قائد لواء المظليين.

لقد تعلم فينتر في الكلية التمهيدية لمستوطنة «عيلي» التي تعد أم الكليات الصهيونية الدينية، لكن هذه لم تكن حالة طوليدانو، الذي تجند للجيش دون وساطة المدارس الدينية أو الكليات التمهيدية. تكلم طوليدانو كقائد عن واجب الدخول إلى غزة من أجل الدفاع عن سكان الجنوب. هو لم يشغل نفسه بحرب دينية، لكن من أقوال فينتر يتضح بشكل جلي أن حرب غزة هي حرب دينية، بحيث يجب أن نقاتل من أجل سمعة الله. لقد كان المس بإسرائيل بالنسبة له مثل المس باسم الله. لحرب فينتر توجد قواعد مغايرة، فهذه حرب فرض».

ما هي آثار قتال يدار في أجواء دينية كالتي يعبر عنها فينتر؟

تفسح حرب كهذه المجال أكثر للمس وبسهولة بمواطنين أبرياء في طرف العدو. يوجد في حرب كهذه سعي لنصر حاسم ، لأن الحديث هنا عن سمعة الرب. توجد في إطار الحرب التي تدار بروح دينية شرعية كاملة للموت من أجل الرب، وهو ما يزيد بالتأكيد الخطر على جنودنا. بحسب مفاهيم هذه الحرب فان الفلسطينيين هم الفلستيم، وبعدها لن يكون هناك فلستيم في البلاد. هذه حرب من شأنها ان تشجع حتى التطهير العرقي.

من الواضح أن جدول أعمال فينتر وأفكاره يشكلان خطورة على جدول الأعمال العلماني في إسرائيل، لكن هل تعتقد أنه يشكل خطورة أيضاً على النظام السياسي في إسرائيل؟

بالتأكيد، فأنا أقل قلقا من رسالة قائد وحدة جفعاتي، ما يقلقني أكثر هو صمت الجيش حيال هذا الأمر.

متدينون، الجيش يناديكم

تحدث في الجيش صراعات مشحونة، ذات خلفية دينية واضحة في السنوات الأخيرة. من بين الأحداث المتراكمة، يمكن ذكر استجابة رئيس هيئة الأركان الجنرال بيني غانتس لتغيير مقدمة صلاة التذكر الخاصة في الاحتفالات العسكرية من: «يتذكر شعب إسرائيل» إلى صيغة أخرى طلبت من قبل عناصر دينية: «يتذكر الله أبناءه». وقد تمت إعادة الصلاة إلى صيغتها السابقة بعد العاصفة الجماهيرية التي ظهرت حول قرار غانتس، تحديدا من جانب العائلات الثكلى التي أعدت عريضة مع ٦٤ توقيعا ضد الخطوة، وقد وافق رئيس الأركان في النهاية على رأي اللجنة التي عينها لفحص الموضوع. فباستثناء رأي الحاخام الأكبر للجيش، الجنرال رافي بيرتس، الذي ادعى، أنه من غير الصواب استبعاد اسم الله من الصيغة الخاصة بالذكرى، أوصت اللجنة بغالبية الأصوات بالعودة للصيغة المعتادة. وعلى هذا استقر الأمر.

مع نهاية قضية «صلاة الذكرى» واجه غانتس قضية أخرى كانت تحت عنوان، غناء النساء، ٩ من التلامذة العسكريين المتدينين في دور الضباط وغالبيتهم يتبعون لوحدات مختارة مثل دفدفان، وأجوز، كانوا تحت تهديد الطرد بعد أن امتنعوا عن الإصغاء لأغنية أدتها مجندات في مساء نهاية المعركة أثناء عملية «الرصاص المصبوب». اقتبس رئيس إحدى المدارس الدينية – والذي كان أحد الغاضبين من تلامذته– في الصحافة كمن قال أن «الأمر فيه قلة من الإحساس اليائس لدى قائد الكتيبة. أصدرت هيئة الأركان العامة للجيش أمرا منع بمقتضاه جندي متدين من عدم المشاركة نشاطات ترفيهية تتعارض مع أسلوب حياته ومعتقداته. قائد الكتيبة، وبقلة حكمة فاضحة وضع الجنود أمام قرار: إما التوراة، وإما أن يكونوا ضباطا في الجيش. في نهاية الأمر استبعد عددا من الضباط، فيما قدّم عدد آخر اعتذاره وبقي في الخدمة.»

حدثت قضية أخرى سبقت القضيتان أيضا في نهاية ٢٠١٠، حينها أنهى الجنرال آفي زمير وظيفته كرئيس قسم الموظفين في الجيش. دعا زمير في الرسالة التي بعثها لرئيس الأركان لوضع خط لصد التطرف الديني في الجيش. أوصى زمير بإصدار أمر، يحدد التمسك بالتقاليد الرسمية للدولة، معتمدا في أقواله على بحث أجري من قبل مستشارة رئيس الأركان، الجنرال «جيلا كليب – أمير» . يشير يجيل ليفي: «يشكل هذا البحث الذي تجسد بمقال نشر في المجلة الشهرية العسكرية «معرخوت» أيضاً قمة الحدث الذي يكشف عن التوتر الديني في الجيش. البحث الذي نشرته كليبي– أمير حدد أن النساء يعانين من عملية الإقصاء في المجالات الرئيسية.»

كليبي- أمير كتبت أن أمر الدمج المناسب(ذلك للعام ٢٠٠٢، والذي كان من المفروض أن ينظم العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في الجيش والذي يعمل على إعطاء شروط للجنود المتدينين) تحول لأداة أساسية، لنظم مكانة المرأة في الجيش؟

ليفي: «البحث الذي نشرته كليبي– أمير، وصف حالة من فقدان السيطرة في الجيش. وقد ادعت أن القواعد العامة مطبقة بشكل يفرض التطرف الديني. جدير بالذكر، أنه وعلى خلفية ما اعتقد بأنه شكاوى من عدم تطبيق أمر الدمج المناسب، عين الجيش سنة ٢٠٠٤ طاقما مختصا لفحص الأمر والتطبيق. القضية هي أن الجيش عين على رأس الطاقم «يلون فرحي»، جنرال في الاحتياط وحاخام في كلية التمهيد ما قبل العسكرية في مستوطنة عيلي. في أعقاب نتائجه، أقيمت في الجيش سنة ٢٠٠٥ «مديرية الدمج المناسب»، وعين على رأسها الجنرال الحاخام «أفيحاي رونتسكي»، لاحقا الحاخام العسكري الأكبر. تمثلت وظيفة المديرية بكشف الفجوات بين السياسة وبين التنفيذ. عملياً، نظر إلى المديرية كأداة لحراسة ومراقبة لتصرفات المجندات المتجولات في القواعد العسكرية، ومراقبة الأخطاء في تصرفات النساء العلمانيات، أو شكل حياتهن المشتركة لهن مع الجنود.

كشف زمير، الذي يخشى المقابلة الصحافية علناً في هذا الموضوع، في الرسالة نفسها أيضاً صراع الصلاحيات الذي نشب بين سلاح التعليم والحاخامية العسكرية، هذا الموضوع الذي تطلب أيضا تدخل مراقب الدولة في نهاية الأمر سنة ٢٠١٢؟

ليفي: «زمير حذر من مغبة الفشل في التوزيع بين الصلاحيتين: صلاحية الحاخامية العسكرية الكبرى وصلاحية سلاح التعليم، لأن النتيجة ستكون تدخلا آخذا بالازدياد للحاخامية في مجال التعليم داخل الجيش، تدخلا يدعو لأرثوذكسية دينية. قال مراقب الدولة بصورة واضحة، إن الحاخامية العسكرية اقتحمت مجالات قيادة ضباط التعليم الرئيسي، وهي تعطي للجنود قيما ليست حكيمة بالضرورة. لقد كتب هذه الأقوال بعد عملية «الرصاص المصبوب»، والتي ظهر أثناءها الحاخام العسكري للجيش «رونتسكي» يتجول بين الجنود ويقوي من أزرهم قبل الخروج للمعركة.

اقترح زمير في رسالته الخارجة عن المألوف تحويل أمر «الدمج المناسب» لأمر «الخدمة المشتركة»، والتي من المفترض حسب مبادئها أن تمنع إقصاء النساء والمس بالجنود على خلفية دينية.

ليفي: صحيح، لكن اتضح بعد نشر أقواله بشكل جلي فشل تحديث أمر «الدمج المناسب» . كانت هناك محاولة كهذه، لكن الأمر لم يتحول إلى أمر ملزم لأن رئيس الأركان بيني غانتس لم يوقع عليه. حتى اليوم هو متردد لأنه يعلم أن الأمر يشكل قنبلة موقوتة. هذه هي الأجواء في جيش الدفاع، وليس عجباً أن إشكنازي وغانتس اختاروا تجميد تطبيق غالبية التوصيات التي أقرت في تقرير لجنة سيجيف من سنة ٢٠٠٧، والذي طالب باعتماد نموذج خدمة مساويا بشكل تام للرجال والنساء.

وثيقة مكملة لفهم ظاهرة التدين في الجيش هي وثيقة «يعود يحود» (هدف، وتوحيد) خطة إستراتيجية ثورية لبناء هوية يهودية صهيونية لجنود الجيش كتبها وزير الدفاع موشيه يعلون سنة ٢٠٠٤ بينما كان آنذاك رئيسا للأركان. نشرت هذه الوثيقة بالتزامن مع قراره بإقامة مديرية الدمج المناسب. يبدو أن تلك هي محركات القوة لعملية التدين في جيش الدفاع، وشخصية الحلّ الموجودة على السطح هي يعلون؟

ليفي: «صحيح، من غير المعتاد الربط بين الاثنين، لكنني أنا أيضاً أرى العلاقة بينهما. تصاغ إلى جانب أمر الدمج المناسب وثيقة مهمة جدا هي: «يعود يحود/ هدف توحيد» التي تصيغ الهوية للجيش للمرة الأولى بعد سنوات طويلة. دافيد بن غوريون كان قد وضع هذا في كتاب بعنوان «يعود يحود»، والذي شمل مجموعة مقالات وخطابات لصورة الجيش. عمل يعلون على طريقته وللمرة الأولى في تاريخ إسرائيل، عرف الجيش الإسرائيلي بأنه جيش يهودي. لقد شعر أنه يجب ترك عقلية أوسلو حول نهاية الصراع، والقدرة على التوصل لحسم سريع، وبدل ذلك تحضير المجتمع الإسرائيلي للعيش في ظل استمرار الصراع . بحسب يعلون فإن الجيش مازال متأثراً بميراث أوسلو، لذلك فهو منظمة مهزومة، حيث ظهر ضعفه حين انسحب من لبنان عام ٢٠٠٠. تم تعيين يعلون لوظيفة رئيس الأركان سنة ٢٠٠٢، وإلى جانب ضابط التعليم الرئيسي «اليعازر شتران»، يسعى نحو فعل من شأنه مصادرة التفرد في التعليم من سلاح التعليم. يأتي هذا العمل –وفي ظل هبوط الحافز للخدمة في الجيش– على خلفية التفهم بأنه يجب تقريب الجندي الإسرائيلي للإرث اليهودي بهدف تقوية الجيش وتعزيز الحافز للخدمة العسكرية عند الجمهور العلماني».

أي أن الجيش عرف أنه بحاجة للدين من أجل وضع أساس لحافز جديد حتى يحرك الجنود لمهامهم.

ليفي:» هذا صحيح، ولهذا مغزيان اثنان إضافيان، الأول أن الجندي المتدين هو الجندي المثالي في أعين القيادة، والثاني، أن الحاخامية العسكرية تملك صندوق الأدوات الذي يحتاجه الجيش حين يواجه على ما يبدو رخاوة المجتمع في إسرائيل وانتقالها للجيش. غيرت الحاخامية العسكرية في عام ٢٠٠٥ من مرسومها التنظيمي وحددت من بين أعمالها «رعاية وإدخال وعي يهودي وموروث إسرائيلي إلى جنود جيش الدفاع». في عام ٢٠١٠ أدخل هذا التحديد في المؤسسة بواسطة تغير في مراسيم التنظيم للجيش. بحسب المرسوم الجديد، تضمنت أهداف ووظائف الحاخامية العسكرية أيضاً «تطوير الوعي اليهودي بقضايا توراتية عند ضباط وجنود الجيش– لتقوية الروح القتالية لجنود وضباط جيش الدفاع الإسرائيلي».

بكلمات أخرى، حمل رئيس أركان الجيش - وللمرة الأولى- الحاخامية العسكرية وظيفة رسمية تتعلق بمواضيع توراتية، مع تقوية الروح القتالية لجنود وضباط جيش الدفاع الإسرائيلي. إلى أين يؤدي هذا من وجهة نظرك؟

ليفي: «ثقرطة، حيث تتدخل صلاحيات بإدارة الجيش. هذا سيحمل الجيش عبئا ثقيلا، ويعيق من قدرته على العمل بما يتواءم والرغبة الجماعية لعامة المواطنين. تشكك السيرورات التي وصفت في قدرة المستوى السياسي على تنشيط الجيش خلال إخلاء واسع للمستوطنات في الضفة الغربية، إذا اقتضت الظروف السياسية.»

الحاخام قال: يمنع الإخلاء

انكشف أفنير جبرياهو، مقاتل سابق في كتيبة «عوراب» لسلاح المظليين، أثناء دورة ضباط الصف، على الوجود الديني بالجيش، وعلى التدخل للمؤثرات الدينية من الخارج. يقول: «تجندت في الجيش بعد الانتفاضة الثانية، وأنا أذكر أثناء الدورة أنني بدأت أفهم أن شيئا ما يزعجني. في تلك الفترة ارتديت القلنسوة (القبعة الدينية) أيضاً وعلى الرغم من أن ذلك كان غريبا من وجهة نظري أن تبرز في دورة القيادة الأكثر أهمية في الجيش درجة التأثير الكبيرة للحاخامية العسكرية. أنا أذكر أننا انكشفنا لكثير من المحاضرين الخارجيين، لكن تقريبا كل المعلمين من الخارج كانوا متدينين، يرتدون القبعات الدينية».

دائما كان هناك صراع داخل الصهيونية الدينية حول الطريق. كان هذا مؤشراً واضحا في جميع الأحزاب الدينية، في داخل حزب المفدال التاريخي كانت هناك الكثير من الأفكار والتوجهات. كان هنالك رجال «هبوعيل همزراحي» وكان هناك اشتراكيون. كان هناك رجال كثر ومفكرون تطرقوا للاحتلال ولقضايا أخلاقية. في حزب المفدال كان في الماضي الكثير بين المركز- واليسار. يتحرك المحور اليوم بين أوريت ستروك ونفتالي بينت. لا توجد تعددية في الآراء، وهذا الأمر يؤثر في صورة جلية على الجمهور المتدين، وينفذ للمدارس والمدارس الدينية الثانوية والمعاهد.

في الأيام التي كان فيها الجمهور الإسرائيلي يعبر عن سخطه من الانتقادات الداخلية، فإن شهادة جبرياهو ابن التاسع والعشرين، من شأنها أن تواجه بتشكك بسبب وظيفته كمدير القسم العام لمنظمة «شوفريم شتيكا»[٤] (نكسر الصمت). مع ذلك فان شهادته تمتاز بمغزى كبير بسبب معرفته القريبة للعالم الديني. يقول: «عام ٢٠٠٤ بعد انتهائي من التعلم في المدرسة الدينية في «ريشون لتسيون»، إضافة إلى إنهائي عام خدمة عن طريق حركة الكشافة الدينية، تجندت للجيش، لكن أيضاً بصفتي رجلا متدينا ما كنت لأقبل كل افتراضات العمل التي عرضت علي حينها في الدورة. تقريبا كل المعلمين من الخارج كانوا متدينين مرتدين للقبعات الدينية. أنا اذكر أنه في إحدى المحاضرات وصل طيار تائب. وقد حدثنا عن التجارب والتجاوزات التي عاناها أثناء رحلاته الجوية. تملّكني – كمن ترعرع في الصهيونية الدينية وسمع محاضرات للتائبين- نفس الإحساس الذي يتملكني في محاضرة يقدّمها تائب.

جبرياهو، الذي خدم تحديدا في جنين ونابلس، ترعرع في بيت تعددي، وهو ابن لوالدين يؤيدان حزب «ميماد».[٥] يقول «تعلمنا على تبني الطروحات النقدية، عرفت دائما أن هناك ٧٠ وجها للتوراة. لهذا حين انكشفت لخط الدورة الخاص، أشعل عندي ضوء أحمر. فقد عرفت أن هناك تيارات أخرى في الصهيونية الدينية. عرفت أن بإمكان مرتدي القبعة قول أمور أخرى أيضا. لم أنجح بمعرفة على سبيل المثال لماذا لا يوجد تقريبا اهتمام في موضوع مثل «طهارة السلاح» . في إطار الدورة التي امتدت على أربعة شهور، لم يثر هذا الموضوع ربما سوى لساعة واحدة من الزمن، وأيضا حينها كان الطرح مبسطا».

كرجل تعلم في مؤسسات دينية صهيونية، كيف ترى وظيفة الوسط الديني مرتدي القلنسوات في التحول الذي يمر به الجيش في قضية الدين؟

دائما كان هناك صراع داخل الصهيونية الدينية حول الطريق. كان هذا مؤشراً واضحا في جميع الأحزاب الدينية، في داخل حزب المفدال التاريخي كانت هناك الكثير من الأفكار والتوجهات. كان هنالك رجال «هبوعيل همزراحي» وكان هناك اشتراكيون. كان هناك رجال كثر ومفكرون تطرقوا للاحتلال ولقضايا أخلاقية. في حزب المفدال كان في الماضي الكثير بين المركز- واليسار. يتحرك المحور اليوم بين أوريت ستروك ونفتالي بينت. لا توجد تعددية في الآراء، وهذا الأمر يؤثر في صورة جلية على الجمهور المتدين، وينفذ للمدارس والمدارس الدينية الثانوية والمعاهد. لكن هذا يبقى بمثابة توصيف للجانب المدني، أما الوظيفة التي تشغلها الصهيونية الدينية في الجيش فمن الأجدر التطرق لها بشكل مختلف.

ما المقصود؟

في كل كنيس للصهيونية الدينية تسمع الجملة: «دولة إسرائيل، بداية بزوغ خلاصنا». يتبع الجمهور الديني القومي بمعظمه موروث الحاخام «كوك» الذي شدد على أنه بأعمالنا يمكننا أن نسهم في الخلاص. يتحدث الحاخام «كوك» عن الجيش كأداة، كسلاح مقدس باستطاعته أن يقربنا من الخلاص. تلك هي معتقدات مسيانية (خلاصية).

يؤمن الجمهور الديني- حتى لو لم يكن يؤمن بأرض إسرائيل الكاملة- بالتأكيد بالمشروع الاستيطاني. إذا ربطنا كل هذه الخيوط معا نفهم الوضع الذي نعيشه اليوم، الصراع على الأرض بالنسبة

خرج للضوء كتاب من إعداد الدكتور جال» والدكتورة تمير ليفيل، هو كتاب «بين القلنسوة وغطائها» الذي يستكشف بشكل معمق ظاهرة التدين في الجيش الإسرائيلي - تحديدا في العقد الأخير- وذلك في الجيش النظامي وخاصة القوات في الميدان، وفي الوحدات المقاتلة والدرجات القيادية. هناك جانب ديمغرافي- إحصائي للظاهرة مرتبط بارتفاع كبير في إعداد الجنود والضباط المتدينين في الوحدات القتالية وفي طاقم القيادة العليا . لكن الجانب الأكثر إثارة يتطرق لظاهرة التدين من وجهة النظر الانثروبولوجية – الاجتماعية التي تركز على الطقوس وأشكال تأثيرها على تصرفات الجنود.

لجزء كبير من أبناء الصهيونية الدينية، بمن فيهم جنود متدينون، هو صراع مسياني– خلاصي. حين تكون الفكرة بأنه كلما تكون بأيدينا أراض أكثر نقترب من قدوم المسيح، تصبح المصلحة الأمنية ومصلحة المعتقد واحدة.

يصغي نائب رئيس مستشار الأمن القومي سابقا د. رؤوبين غال – تولى منصب المعالج النفسي الأول للجيش حتى حرب لبنان الأولى– منذ سنين للتقلبات التي يواجهها المجتمع الإسرائيلي. وكمن ينشغل في أبحاثه بمواضيع ترتبط بحالات الضغط، المناعة الوطنية، وعلاقات المجتمع –الجيش، فهو أيضا منزعج. بحسبه «إن الحدث الذي أشعل عندي ضوءا أحمر كان الحدث الذي رفع فيه جنود من وحدة «كفير» لافتات كتب عليها: «وحدة شمشون لن تخلي حومش» ،حيث اتضح أنهم كلهم من تلامذة الحاخام «اليعازر ميلمو» من المدرسة الدينية «هار براخا».

حدثت القضية التي يذكرها غال في تشرين الأول ٢٠٠٩، في قمة مراسم أداء اليمين الدستورية بحائط المبكى، واعتبرت بمثابة المعالم الأولى لرفض الجنود. جرت بعد هذا الحدث أحداث مشابهة، كان آخرها في شهر أيار الأخير، حين وضع مقاتلون من كتيبة ٥٠ التابعة لوحدة «ناحل» على مواقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك منشورات ضد إخلاء يهود.

غال: بالنسبة لي، دلّ الحدث داخل حائط المبكى على التأثير الكبير للحاخامية على الجنود، ربما أكثر مما نعتقد . عمليا، في أعقاب ذلك الحدث، خرجت مع عدد من الباحثين لبحث السيرورة التي تتطور وفقها المبادئ الدينية داخل الجيش».

في نهاية الرحلة التي استمرت لأكثر من سنتين، خرج للضوء كتاب من إعداد الدكتور جال» والدكتورة تمير ليفيل، هو كتاب «بين القلنسوة وغطائها» الذي يستكشف بشكل معمق ظاهرة التدين في الجيش الإسرائيلي – تحديدا في العقد الأخير– وذلك في الجيش النظامي وخاصة القوات في الميدان، وفي الوحدات المقاتلة والدرجات القيادية. هناك جانب ديمغرافي–إحصائي للظاهرة مرتبط بارتفاع كبير في إعداد الجنود والضباط المتدينين في الوحدات القتالية وفي طاقم القيادة العليا . لكن الجانب الأكثر إثارة يتطرق لظاهرة التدين من وجهة النظر الانثروبولوجية – الاجتماعية التي تركز على الطقوس وأشكال تأثيرها على تصرفات الجنود.

«في عام ١٩٦٢، عندما خدمت في الجيش في وحدة ناحل، كرئيس فرع وقائد وحدة في مدرسة للضباط، كان من حولي القليل من الجنود والضباط المتدينين المرتدين للقلنسوة، حينها عندما كان عددهم قليلا نسبة للجنود العلمانيين، لم يبرز الموضوع الديني. وأنا لا أذكر أنه كانت هناك أهمية خاصة لكون الضباط متدينين أو علمانيين. صحيح أن الجنود المتدينين يقومون باكرا للصلاة، لكن بهذا كان ينتهي الأمر، ولم يكن هناك مغزى جوهري لكونهم متدينين. الأهم من ذلك لم يكن هناك تدخل لعناصر دينية من الخارج مثل حاخامات مدنيين ورؤساء مدارس دينية . حينها لم يكن وارد أن يتجول حاخامات مدنيون في القواعد العسكرية. اليوم هذه الظاهرة معتادة جدا، وللحاخامات تأثير قوي على تلاميذهم الذين أصبحوا جنودا . هناك أحداث ليست قليلة يؤثر فيها الحاخامات على تصرفات الجنود وسلوكهم، وعلى الشكل الذي يفسر به الجندي الأوامر بين مسموح وغير مسموح.

حدث انقلاب، تغيير حاد في وظيفة الحاخامية العسكرية. وكل هذا حصل في فترة رئاسة موشي يعلون لهيئة الأركان . قام يعلون كرئيس للأركان بتقوية العناصر اليهودية في الجيش، وقد أعطى الحرية الكاملة للقوى الدينية وقام بتقويتها. ومنح الحاخامية العسكرية موطئ قدم فيما يتعلق بقيم القتال. أثناء ولاية الحاخام «فايتس» أعلن في الحاخامية عن إقامة مجال قيم القتال، تحول فيما بعد لفرع. أنت تسأل نفسك، كيف تنشغل الحاخامية العسكرية بقيم القتال؟ إذ من المفترض أن من ينشغل بمواضيع من هذا النوع مقر ضابط التربية الأول. هكذا كان الأمر فعلا لسنوات طويلة.

هل يمنع على الجندي المتدين مواصلة علاقته مع الحاخام ؟

بالطبع مسموح، لكن جيشا في دولة ديمقراطية لا يستطيع تحمل وضع يكون فيه الجنود والضباط تحت تأثير مصدرين مختلفين من الصلاحيات – الصلاحيات العسكرية والصلاحيات الدينية – الحاخامية . يجب أن تكون المنظمة العسكرية سلسلة، وظائف واحدة فقط تنتهي بالقائد المعين – رئيس الأركان أو القيادة المدنية المعينة– وليس بالتوراة أو الحاخام . كما رأينا في حادثة وحدة «كافير» والحاخام «ملمد»، لدينا مشكلة في الصلاحيات.

كان هذا عملا سياسيا وغير مسبوق، لكن من نفذه كانوا جنودا مبتدئين– أشك إن كان في المراتب العليا تصرف كهذا!

هذا صحيح، القادة والمقاتلون مرتدو القبعات هم اليوم أصحاب الحافز القتالي والإخلاص القوي الموجود في الجيش .الضباط الذين يصلون لمواقع متقدمة، حتى لو كانوا أيضا من مرتدي القلنسوات، دون أدنى شك، يعملون وفق تقاليد ومعايير الجيش . لو تسأل قائد لواء جفعاتي إذا كان لديه أي تردد أو ارتباك بشأن من يجب أن يستمع لأوامره الحاخام أم قائد الفيلق الخاص به، فإنه سيضحك. بالنسبة له هذا ليس سؤالا على الأطلاق ، فهو سيقول إنه جندي ينفذ الأوامر . لكن الإفادات والشهادات التي وصلت إلينا خلال تأليفنا للكتاب تتحدث عن سيرورة بطيئة وتدريجية من التغير. التأثير الديني تعاظم جدا، وتغيرت البيئة المحيطة. قواعد عسكرية، غرف معيشة، ومكاتب غيرت مظهرها . واليوم من الممكن أن نجد أكثر وأكثر صور أولياء وقديسين وأدوات متلائمة دينيا للاستخدام، إضافة لذلك على المستوى التقني، تسلمنا تقارير أثناء عملية «الرصاص المصبوب» تفيد بأنه أثناء المساء وقبل الخروج للمهمات، نظمت اجتماعات للصلاة والأدعية.

جيش الدفاع اليهودي

يؤكد غال أنه يوجد فرق بين صلاة عفوية وبين صلاة بمبادرة ضابط متدين. يقول «يزعجني أقل أنه في ساعة الضيق وعند الاقتراب من ساعة القتال تظهر معان دينية تستدعي الله في ساعة الصلاة. شخصيا أذكر الحاخام «شلومو جوران» أثناء حرب الأيام الستة حين بدأنا بالتحرك من «غوش عتسيون» لاحتلال الخليل، وقف على المركبة العسكرية وقرأ عبارته الدينية «اذكر ما فعله بك عماليق».٦ لكن أنا منزعج من كون الأمر تحول إلى عادة يومية. يبلغون عن ضباط متدينين تنقلوا بين الجنود وقاموا بتوزيع شالات الصلاة والكتب المقدسة.

ليس مفروضا على كل جندي أخذ الأدوات الدينية أو الكتب المقدسة. هم لا يجبرون.

هذا صحيح، لكن أبلغنا على سبيل المثال عن ضباط متدينين قاموا بتسمية شالات الصلاة الصغيرة «بالسترة الواقية». وقد فهمت من هذه الأقوال إضافة إلى الأوضاع الاجتماعية كالصلوات الجماعية للجنود بالجيش بأن هذه الأمور يمكنها أن تعامل بالبسمة، كعادات وتقاليد . ولكن برأيي هذه الظواهر آخذة بالازدياد بحيث تتصرف الوحدات، خاصة الوحدات القتالية، وتحديدا في ساعات القتال، بشكل ديني جدا. فالحاخامات العسكريون أصبحوا شخصيات حيوية جدا، ليس أقل من القادة العسكريين. يوجد اليوم حاخام للوحدة، حاخام للكتيبة وحاخام للفيلق، وكلهم ملاصقون بشكل شخصي للجنود . ويتواجدون في أوقات القتال في مناطق التجمعات ويتكلمون كثيرا مع الجنود، يقومون بعمل الصلوات لهم. وأيضا، وبدون علاقة بأنشطة تنفيذية، فانهم ومع كل نهاية المناوبة يخاطبون الجنود بما لا يقل عن القادة العسكريين، قائد اللواء أو قائد الكتيبة .

متى بدأ هذا التدخل؟

لقد أخذ زخما بالتحديد في زمن الحاخامين العسكريين «أفيحاي رونتسكي» و «يسرائيل فايتس». حينها حدث انقلاب، تغيير حاد في وظيفة الحاخامية العسكرية. وكل هذا حصل في فترة رئاسة موشي يعلون لهيئة الأركان . قام يعلون كرئيس للأركان بتقوية العناصر اليهودية في الجيش، وقد أعطى الحرية الكاملة للقوى الدينية وقام بتقويتها. ومنح الحاخامية العسكرية موطئ قدم فيما يتعلق بقيم القتال. أثناء ولاية الحاخام «فايتس» أعلن في الحاخامية عن إقامة مجال قيم القتال، تحول فيما بعد لفرع. أنت تسأل نفسك، كيف تنشغل الحاخامية العسكرية بقيم القتال؟ إذ من المفترض أن من ينشغل بمواضيع من هذا النوع مقر ضابط التربية الأول. هكذا كان الأمر فعلا لسنوات طويلة.

هل يتحدث ضابط التربية الأول عن الموروث اليهودي؟

بالطبع يتحدث عن إرث الآباء وأرض الآباء. لكن ذلك يكون إلى جانب تحدثه عن مواضيع أخرى مثل الصهيونية، الاستيطان ومنظمات «البلماح» . أضف إلى ذلك، امتلك ضابط التربية دائما تفهما لوجود جنود من غير اليهود، كالبدو والدروز وغيرهم. في اللحظة التي تحولت فيها الحاخامية قوة مسيطرة جدا، فإن الطريقة التي طرح بها موضوع الإرث اليهودي تغيرت أيضا، حيث لم تكن عملية التغير شكلية فقط– بل كبيرة ودراماتيكية. حين يتحدث يهودي علماني عن الإرث اليهودي، فهو يضم للمصطلح عناصر إسرائيلية كثيرة جداً تتعلق بالتاريخ الصهيوني الخاص بنا. بينما حين يتحدث شخص متدين يرتدي القلنسوة عن الإرث اليهودي فهو يتكلم عن التوراة والكتب المقدسة، والعبادات والرب تقدس اسمه.

لقد قمت بزيارة وحدات في الجيش الأميركي والبريطاني عدة مرات. وظيفة رجال الدين في كلا الجيشين معروفة ومقلصة إلى حدّ كبير، فهناك يدور الحديث عن خدمات دينية لا شيء أكثر. عندنا بدأ هؤلاء الحاخامات التركيز في العقد الأخير على القيم والتعليم. يقول الرأي الذي يحمله طلائع ومبشرو هذا التغير إن قيم القتال في الجيش يجب أن تنهل من المكون اليهودي، من الكتاب المقدس والتوراة. المشكلة أن الدمج بين الجيش والدين أمر غير جيد، هو مناسب للجيوش المتطرفة. في اللحظة التي ينهل بها الجيش الإسرائيلي القيم القتالية من مصادر تراثية ومن تعاليم دينية، لا يكون جيشا إسرائيليا إنما جيش اليهودية.

توجد أيضا مسألة شخصية القائد، حيث تكون في الجيش الإسرائيلي شخصية تربوية ومؤثرة. حين يكون قائدك متدينا، فأنت تنكشف من خلاله على قيمه وتوجهاته الخاصة به، دون غربلة ودون قصد. وربما تكون لذلك آثار أقوى من درس عند الحاخام العسكري الأول.

بالطبع. إن إحدى ميزات الجيش الإسرائيلي هي أن القادة هم شخصيات تربوية، وللقادة في الجيش تأثير حاسم على الجنود. لذلك يزعجني أن يكشف قادة أصحاب أيديولوجية معينة أمام جنودهم أفكارهم الدينية والسياسية. وأيضا حين يأخذون جنودهم لزيارات في بيوتهم في المستوطنات والكنس الخاصة بهم، دون أن يكون الجنود معرضين بنفس المدى لتأثيرات أخرى.

ماذا تتوقع من الجيش أن يفعل؟

يتوجب عليه أن يكون على علم بالآثار المترتبة على ذلك، وأن يسعى نحو التعدد. بأن ينكشف الجنود مثلا لضباط من المهاجرين الجدد، أبناء الكيبوتسات ورجال المناطق المهمشة. يكمن الخطر في السيطرة الكبيرة لمجموعة ذات أيديولوجية واحدة داخل جيش رسمي، جيش الشعب. حسب رأيي، في اللحظة التي يقوى فيها قطاع معين صاحب أيديولوجية معينة وتطغى أفكار وتوجهات مغايرة داخل جيش رسمي– يبدأ ر مسار خطير بالتبلور.

مسؤول الروح القتالية

وقف في الساعات المتأخرة من الصباح، على بوابة الدخول لمستوطنة «إتيمار» المحاذية لنابلس، ضابط أمن بلباس مدني، يحمل بندقية، وإلى جانبه مركبة عسكرية تحمل أربعة جنود. ركن الجنود مركبتهم وسط الطريق . من الميدان الرئيسي في «إتيمار» نشر إلى جهة الغرب شارع مجدول بالبيوت الأرضية ذات الأسطح الحمراء، من ضمنها بيت عائلة «فوجل» الذي شهد عملية قتل قبل سنوات، اثنان طعنا بالسكين وتم إطلاق النار على فوجل وزوجته وثلاثة من أبنائهم. بعد ذلك تبدأ طريق منحدرة تؤدي الى المدرسة الدينية (يشيفاة) لإتيمار والتي تضم اليوم حوالي ٢٠٠ طالب.

ينتظر رئيس المدرسة الدينية، الحاخام «أفيحاي رونتسكي» القاطن في المستوطنة–والذي شغل منصب الحاخام العسكري للجيش خلال السنوات ٢٠٠٦–٢٠١٠–على مدخل المدرسة الدينية،

يرتدي قميصا أبيض ناعما، ومن خلفه حائط التخليد معلقة عليه صور عائلة فوجل، وهو ينظر إليها باستمرار متوجها بخطى بطيئة إلى غرفة تدريس جانبية. على الحائط كانت يافطة تشير إلى قاعة مكتوب عليها «بطولات الجندي» تيمناً بأسماء الجنديين، المقدم»عمنويل مورنو»، رجل كتيبة الأركان، والرائد «روعي كلاين» ، الذي كان نائب قائد كتيبة ٥١ لجلاني. قتل»مورنو وكلاين» في حرب لبنان الثانية. وكلاهما تلامذة الكلية التمهيدية ما قبل العسكرية «بني ديفيد « في عيلي.

يجلس رونتسكي حول طاولة مليئة بأكواب القهوة الفارغة وعليها الكتاب المقدس (التناخ). «أنا لا أذكر أن أبناء الكيبوتسات قد ملأوا الصفوف بأعداد تشابه أعداد المتدينين اليوم في جيش الدفاع الإسرائيلي، هل لاحظ أحد هذه الظاهرة»، يقول. «ما هذا التدين؟ أنا لا أفهم، لم ينظر أحد بتاتا إلى ظاهرة كثرة أبناء الكيبوتسات في جيش الدفاع بقلق. ولم يكتب عن هذا أحد كتابا. من ماذا يخشون؟ هناك حسب رأيي عملية تخويف للمجتمع الإسرائيلي من ارتفاع في أعداد المتدينين في الجيش الدفاع، إنهم يخيفونهم من انقلاب.

واجهنا حدثا كلاسيكيا كان بمثابة اختبار في «غوش قطيف» . هل أصغى أحد من أولئك الجنود لكبار الحاخامات حين دعوا لرفض الأمر؟ لا. لقد أصغوا للقادة. يأتي الجنود المتدينون للجيش من أجل الدفاع عن الدولة. هذه مهمة مقدسة ومهمة. لا توجد أهداف أخرى. أي كلام عن التديين هو تقريبا عداء للسامية. هذه دعاية تحريضية. إن ما حدث هو أنه تشكل فراغ داخل إطار العسكرية امتلأ على يد أبناء الصهيونية الدينية، الذين اكتسبوا تعليما يوجههم نحو الواجب. لرعاية الدولة وليس للحكومة.»

عدا عن وظيفته كرئيس للمدرسة الدينية، يشغل «رونتسكي» أيضا عضو إدارة «الهوية اليهودية»، وهو جسم اقيم قبل حوالي السنة على يد حزب البيت اليهودي بهدف غرس القيم اليهودية بالجمهور.

يضيف رونتسكي: » إدارة الهوية اليهودية كانت من المفترض أن تكون تابعة لوزارة التعليم، ولكن أبعدونا من هناك، لأمر يتعلق بالسياسة. هذا غير مضر، فنحن سعيدون أيضا في وزارة الخدمات الدينية. هناك أكثر من ألف من الشباب، الطلاب في أعمار الخدمة ومراكز الإعداد السابقة- للعسكرية- قد مروا بطريق برامجنا التي تهتم بتعليم التوراة واليهودية. وهنالك طلب كبير على الأمر. كلهم علمانيون، لكنهم نوعيين، لا يشاهدون برنامج «الأخ الأكبر» التلفزيوني.

يمتلك رونتسكي، كل الأسباب الجيدة التي تجعله سعيدا بجزئيته. هو خال من أي محاولة لإخفاء نشاطه باستقطاب أبناء البلاد للتوراة، «رونتسكي»، من مؤسسي مستوطنة «إتيمار» وقد كان تاب في نهاية حرب يوم الغفران، هو ربما الشخصية المركزية التي يمكن التعلم منها عن عملية التديين التي يمرّ بها الجيش الإسرائيلي. ما يوجد في قلبه ينطقه لسانه. بدأ تدخله في الموضوع سنة ٢٠٠٥، حين عينه رئيس الأركان آنذاك «موشيه يعلون» رئيسا لإدارة «الدمج المناسب».

«أسسنا الإدارة من أجل إنشاء جهاز يسمح بحياة مشتركة، منصفة للجنود والمجندات»، يقول «رونتسكي»، الذي اتهم بتسريب معلومة عسكرية للوزير «نفتالي بينت» أثناء عملية «الجرف الصامد»، حين شوهد في مناطق الاجتماعات لابسا الزي العسكري. سمعنا الكثير من الشكاوى، دون علاقة للمتدينين، تحديدا شكاوى البنات. كانت هذه فترة يشوبها التوتر مع منظمات نسائية من الخارج، دخلت للجيش مجموعة كبيرة من النساء. كانت المشكلة عدم جاهزية البنية التحتية لاستيعاب المجندات.

ماذا على سبيل المثال؟

مثلاً فصل خدمات النساء عن خدمات الرجال في القواعد العسكرية. أنا أذكر «حين وصلنا لموقع صغير بجبل جرزيم، كانت هناك المجندات المراقبات، وبشكل مفاجئ جمعوا في حجرة الدرس للمظليين. كان ذلك صعبا على البنات. فهن يحتجن للخصوصية. كان هذا مثلا.

ضمن إطار عمل الإدارة استخرجنا وحدثنا الأوامر. حرصنا على استيعابهن في مقرات الفرق، مقرات وحدات، عن طريق القادة. أنشأنا دائرة للفحص. أعتقد أن الوضع اليوم أفضل بكثير. أجبرنا الجيش على صرف ميزانية للبنية التحتية من أجل إقامة أماكن سكنية للبنات اللواتي سكن قبل دخولي الوظيفة بنفس الممر مع الأولاد. في الكيبوتسات هذا أمر عادي، بينما الجيش لا».

هل هناك أمثلة أخرى لعمل الإدارة؟

حين وصلت مدربة رياضية بثياب قصيرة- عذراً، لكن هناك جمهور كبير يزعجه هذا الأمر، الجمهور غير مستعد للركض وراء امرأة بثياب قصيرة.

كيف ذلك!! نحن يهود، نحن جيش يهودي. الجندي الذي يعلم سلسلة الأجيال من أبينا إبراهيم، مرورا بالملك داوود يوني نتنياهو، روعي كلاين، وحنا شنش- هو جندي قوي. وهو يعيش حقيقة أن شعبه عاد بعد آلاف السنين من المنفى. وهو غير متردد. ويعلم أن هذه أرضه ووطنه. أثناء عملية «الجرف الصامد» كان هناك عشرات الجنود الذين تجندوا للاحتياط على خلفية يهودية، ولم يكن هناك جندي واحد بدعوى من ضابط التربية الأول. لم يعمل سلاح التعليم بهذا يوما ولم يعمل به اليوم.

لكنك وصلت لوظيفة الحاخام العسكري بعد خطة الانفصال مباشرة من أجل معالجة مواضيع أكثر تعقيدا حسب رأيك، صحيح؟

بالطبع، حضرت الوظيفة. رئيس الأركان حينها دان حلوس طلب مني الدخول للوظيفة ولكني جئت بشروط. عرضت عليه برنامج عمل واضحا. الأمر المركزي الذي طلبته هو أن يكون للحاخامية دور. أن تكون جزءا من النسيج العسكري. حين كنت جنديا لم أر حاخامات عسكريين. كان الحاخامات أولئك الذين يجلبون الأشياء المحلاة للجنود ويدفنون أصحابهم من القتلى المتدينين. الحاخام لم يخرج يوما لأرض المعركة، حتى لم يشترك بتمرين السفر الطويل. وهم لم يطلقوا النار طوال عمرهم.

وهل أطلق الحاخامات النار عندك؟

جميعهم كانوا ذوي ماض حربي. في الفترة التي شغلت فيها المنصب حدثت تغيرات كثيرة. «أردت أن تكون الحاخامية قتالية. ولهذا قمت بتغيير جزء كبير من الحاخامات في الحاخامية العسكرية. خلق هذا العمل وضعا تحول فيه الحاخامات ليكونوا مقربين أكثر من الجنود، وبدأوا الخروج مع الجنود في تمرينات السفر الطويلة، وقد دخلوا لغزة أثناء عملية «الرصاص المصبوب». أيضا خلال عملية «الجرف الصامد « دخلوا مع وحداتهم هناك.

لماذا تولي أهمية بأن يدخل الحاخام لغزة مع الجنود؟

لأن الوظيفة الأساسية للحاخام ليست الحفاظ على التدين وجلب الحلوى والخمر الديني، هذه مجرد خدمات لوجستية، فأمين المخازن يستطيع فعل ذلك. وظيفة الحاخام هي أن يكون مساعدا للقائد بتقوية الروح القتالية. القدرة على النصر في المعركة مرتبطة بالقدرة المهنية الممتازة إلى جانب قدرة نفسية ممتازة. من خلال تجربتي، في حرب يوم الغفران، دون الروح القتالية لم نستطع الانتصار. ليست حكمة الجنرالات هي التي جلبت لنا الانتصار.

ما هي عناصر الروح القتالية؟

العنصر الأكثر أهمية هو التقرب لشعبك ولبلدك وتاريخك. أنا لا أتحدث عن إيمان، على الرغم أنه من الواضح لي بأنه أيضا يعطيك الكثير من القوة. تاريخ الشعب القديم يعطيك الكثير من القوة. حين نصل للعمل في «السامرة»، لا يتوفر الوقت للقائد لإشغال نفسه به. فهو في غالبية وقته منشغل بتدريب الجنود. الحاخام يستطيع مساعدته، لترغيب الجنود روحانيا بتاريخ المكان، الآثار، الكتاب المقدس. الجندي ليس مرتزقا. كل المكان مشبع بالتاريخ اليهودي منذ آلاف السنين. ويجب على الجندي أن يفهم بأنه يواصل عملا ما. وهذا ينطبق على غزة كما هو الحال على الحدود في الشمال.

كيف إذاً تفسر مشاجرتك أنت والحاخامية مع سلاح التربية والقائد «زمير»؟

لم يكن آفي زمير رجل حرب في حياته البتة. ضباط جيش الدفاع الإسرائيلي، قادة الكتائب والوحدات والألوية ووحدات مستوى الشحن، هؤلاء هم من ينتصرون في الحرب، وهم الذين يحتاجون الروح وهم يفكرون في غير ما يفكر به زمير. حين قمنا بتوزيع الحاخامات في وحدات الجيش، حاربوهم. قبل الدخول لغزة، طلب منهم القادة التكلم مع الجنود أثناء عبورهم الحدود. هم يطلبون: اعطهم هذا، اعطهم التناخ وتكلم عن «شيمشون».

هل تعتقد بأنك تستطيع إدخال الروح القتالية إلى الجنود دون اليهودية؟

كيف ذلك!! نحن يهود، نحن جيش يهودي. الجندي الذي يعلم سلسلة الأجيال من أبينا إبراهيم، مرورا بالملك داوود يوني نتنياهو، روعي كلاين، وحنا شنش– هو جندي قوي. وهو يعيش حقيقة أن شعبه عاد بعد آلاف السنين من المنفى. وهو غير متردد. ويعلم أن هذه أرضه ووطنه. أثناء عملية «الجرف الصامد» كان هناك عشرات الجنود الذين تجندوا للاحتياط على خلفية يهودية، ولم يكن هناك جندي واحد بدعوى من ضابط التربية الأول. لم يعمل سلاح التعليم بهذا يوما ولم يعمل به اليوم.

غير دقيق.

هو منشغل بالديمقراطية، وبمسائل تتعلق بكيف تتصرف في حالة إخلائك؟ لكن أبهذا ننتصر في الحرب؟ هل يمكن الركض مع علم الديمقراطية؟ قد يكون هذا مهما في المجتمع الإسرائيلي، في المدرسة، ولكن ليس في جيش الدفاع الإسرائيلي. لتدريب الجندي هناك حاجة للتدريب على النصر. هل ننتصر مع ثقافة يوم الأحد ومسرح هبيما؟!

بسبب أنه يوجد حدود، كنت توجز في حديثك حل العلاقة بين الجيش والدين؟

ليس علينا الحذر من أي شيء. فهذه سوق حرة. لا أحد يفرض على أحد. من ماذا نحذر، ومن من، أنا استطيع أن أقدر بأن جزءا من النخب القديمة تخشى من تغير وجه المجتمع الإسرائيلي. اليوم يختلف الجيش إلى حدّ كبير. ليس فقط المتدينين يتواجدون في كل ركن فيه، بل أيضا أغلب القادة الضباط والألوية هم من مرتدي القلنسوة الدينية. خشية النخب هي بأن الحوار تغير.

حقاً؟!

جئت في إحدى المرات إلى جلسة ميدانية لسلاح المظليين. قائد التوجيه كان رائدا متدينا وخريج الكلية التمهيدية في عيلي . كان ذلك في وقت ما قريب من يوم أورشليم، قام هو بعمل ملخص الأسبوع للجنود ثم قام بربط الأمر بقضية الأسبوع [٧] وبعض قصص الآباء، وبعد ذلك قام بقراءة (كديش[٨]) صلاة لـ ٤٠٠ من الجنود. هل يمكن لأحد أن يخبرني أن بإمكان رجل علماني القيام بحدث كهذا، ماذا يعرف عن القدس؟ أقول هذا بكل أسف. إن خشية بعض الجماعات هي أن التغير في الجيش سيغير المجتمع. وأن كبار الجيش المتدينين سوف يحتلون مواقع أيضا في السوق الخاص، والقطاع العام. هناك خشية من هذا. هذه حرب البقاء لجماعات داخل المجتمع الإسرائيلي كما قالوا هم ذلك. هنالك من يخشى أننا سوف نسحب البساط من تحت أرجلهم وأننا سوف نسرق لهم الدولة، كما قالت ذلك لبئة رابين (زوجة اسحق رابين) يوماً.

[ترجمه عن العبرية: نعمان شلبي]

الهوامش

١ الفلستيون: القبائل التي استوطنت شاطئ فلسطين الجنوبي الغربي في القسم الممتد من غزة إلى يافا شمالاً، وهم من شعوب البحر. ولقد ورد ذكر الفلستيين في عدد من المصادر المصرية كما ورد عدة مرات في العهد القديم، جاء في الفصل الرابع من موسوعة اليهود اليهودية والصهيونية لعبد الوهاب المسيري «اصطدم الفلستيون بالعبرانيين الذين كانوا قد وفدوا حديثاً إلى المنطقة فهزموا القضاة واستولوا على تابوت العهد، كما استولوا على أجزاء من المنطقة التي صارت فيما بعد المملكة الجنوبية، ودامت هيمنتهم أربعين عاماً.... وينتمي شمشون الذي وقع في حب دليلة الفلستية إلى هذه الفترة. ولم يكن لدى الفلستيين القدر الكافي من الموارد البشرية اللازمة للهيمنة على المنطقة واستغلالها، ولذا اضطروا إلى الإبقاء على العبرانيين وإخضاعهم ليكونوا أيدي عاملة[...] وحينما بدأت وحدة الدول المدن الفلستية في التفكك، عرف العبرانيون صهر الحديد وتعدينه فتمكنوا من الفلستيين» ويضيف المسيري «أن فلسطينيي اليوم لا علاقة لهم بشعوب البحر اليونانية هذه[....] وتجتهد الدعاية الصهيونية في طمس هذه الحقيقة لتربط في أذهان الناس في العالم بين العرب الفلسطينيين والفلستيين القدامى الذين انتصر عليهم العبرانيون، حتى يصبح الصراع العربي الإسرائيلي صراعاً دائماً مستمراً يمتد إلى بداية التاريخ وليست له حدود معروفة. (للمزيد انظر/ي http://goo.gl/WVgmTS) (هيئة التحرير)

٢ «يوم أورشليم: يعتبر في إسرائيل يوم عيد وطني يُحتفل فيه سنويا بما تسميه إسرائيل «توحيد شطري المدينة تحت سيادتها» في إشارة إلى احتلال الشطر الشرقي للمدينة في أعقاب حرب ١٩٦٧ وضمها للسيادة الإسرائيلية وإعلان المدينة عاصمة إسرائيل الأبدية، علما أن هذا جاء مخالفا لكل القرارات الدولية (ه.ت)

٣ الميكفة هي تجمع مياه غير مسحوبة، وعلى الأغلب من مياه الامطار، يتم توفيرها من أجل أن تستخدمها بشكل خاص النساء للتطهر من حالات النجاسة، كما تستخدم الميكفة لتطهير الأدوات الجديدة التي يتم شراؤها من الأغراب– غير اليهود (ه.ت).

٤ منظمة نكسر الصمت: هي منظمة تعمل على تجميع شهادات عن الخدمة في الجيش في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ الانتفاضة الثانية. تهدف المنظمة كما جاء على صفحتها إلى: رفع الوعي بالواقع اليومي في المناطق (المحتلة) وخلق نقاش جماهيري عن الثمن الأخلاقي الباهظ للسيطرة على شعب آخر. أقيمت المنظمة عام ٢٠٠٤ من قبل مجموعة جنود مسرحين ممن خدموا في الضفة خاصة في الخليل. (ه.ت)

٥ ميماد: حزب ميماد هو حزب صهيوني ديني صغير يعتبر في إسرائيل يسار– مركز. أقيم عام ١٩٨٨.(ه.ت)

٦ العماليق: قوم قديم سكن فلسطين، وفق الموروث الديني اليهودي، عِمْليقَ أَو عِملاقَ هو ابن اليفاز ابن عيسو، ومن سلالته جاء قوم العماليق الذين يوصفون في الكتاب المقدس بالمتوحشين والسفاحين وينسب لهم مهاجمة بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر. ووفق الموروث اليهودي الديني يرمز العماليق للشر، وقد لعنوا في الكتاب المقدس وذكر أن قتلهم ومحو ذكرهم فرض على شعب إسرائيل وقد جاء في سفر التثنية –الذي اقتبس في النص أعلاه– في الاصحاح الخامس والعشرين ١٧–١٩: «أَذْكُرْ مَا فَعَلَهُ بِكَ عَمَالِيقُ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ خُرُوجِكَ مِنْ مِصْرَ. كَيْفَ لاَقَاكَ فِي الطَّرِيقِ وَقَطَعَ مِنْ مُؤَخَّرِكَ كُلَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَرَاءَكَ، وَأَنْتَ كَلِيلٌ وَمُتْعَبٌ، وَلَمْ يَخَفِ اللهَ. فَمَتَى أَرَاحَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِكَ حَوْلَكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا، تَمْحُو ذِكْرَ عَمَالِيقَ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. لاَ تَنْسَ.» (ه.ت)

٧ قضية الأسبوع وبالعبرية 'براشات هشبوع' هي واحدة من ٥٤ قضية يتم وفقهن تجزئة خمسة أخماس التوراة. هدف التقسيم لمواضيع الأسبوع السماح بقراءة متسلسلة وحسب النظام لكل التوراة، وذلك على امتداد سنة بالضبط (ه.ت)

٨ كديش: هي صلاة يهودية معروفة تقال عادة بالآرامية وتصبو إلى تكبير وتقديس اسم الرب ولتجلي ملكوته في العالم(ه.ت).